# البلاغة القرآنية وتوضيح واجب

أ.د. محمد محمد أبو موسى
رئيس قسم البلاغة والنقد
كلية اللغة العربية
ـ الأزهر ـ القاهرة

تدور كلمة البلاغة القرآنية في كلام العلماء والمراد بها العناصر البلاغية التي بنيت عليها بلاغة اللسان العربي. في الشعر. وفي الخطب. والرسائل. والقرآن والتي تتوزع على محاور ثلاثة: محور هو أحوال نظم الكلام وتأليفه وسبكه وما يتفرع من هذا الباب من أحوال كالتقديم والتأخير والفصل والوصل والتعريف والتنكير إلى آخر ما هو معروف في علم المعاني. والثاني هو التشبيه والمجاز والكتابة وافساد هذه الابواب. وفروعها مما يدرسه علم البيان. والثالث ما سماه العلماء البديع أو وجوه تحسين الكلام من طباق وجناس وغير ذلك.

وهذه البلاغة قائمة في الشعر. وفي القرآن. والكلام كله. ولكنها في القرآن لها أسرار لا تتناهى. فإذا كان التقديم في الشعر يروقك موضعه. ويعظم لديك موقعه. فإن أسراره في القرآن تتكاثر. وتدق. وتتسع. حتى لا يحاط بها. وهكذا يقال في التشبيه والمجاز والطباق. إلى آخر هذه الفنون التي هي قائمة في كلام الناس. وتعجب وتطرب. وتروع. وهي متفاوتة في كلامهم. فتشبيهات زهير غير تشبيهات الاعشى. ومن الشعراء من برعوا في هذه الأبواب حتى قالوا! أحسن الجاهليين تشبيها هو امرؤ القيس وأحسن الاسلاميين هو ذو الرمة وهكذا يقال في مقابلات أبي تمام وجناس البحتري الى اخره!

وكل هذا من القرآن الكريم لأن بلاغة القرآن هي بلاغة اللسان الذي نزل به. ولهذا كان العلماء الذين يؤسسون هذه العلوم يستخدمون شواهدها من الشعر. ومن كلام الاعراب في بواديها. وما تراجزوا به على أفواه القلب ـ جمع قليب وهو البئر ـ كما يقول الزمخشري لأنهم كانوا يؤسسون بلاغة اللسان الذي نزل به القرآن.

وهذه العناصر البلاغية هي التي أرجع أكثر علمائنا أمر الاعجاز اليها وذلك من يوم ان كتب الجاحظ كتاب الاحتجاج لنظم القرآن وغريب تأليفه. والكلام كله يدور حول وجوه البلاغة التي هي بلاغة اللسان كما قلنا وانها في القرآن تتجاوز الحد الذي تقف عنده طاقة البشر. وينتهي اليه وُسْعهم. فلا يتجاوزونه. وقالوا ان كلام الناس في هذه الفنون يتفاوت. ويعلو بعضه بعضا. ويترقى طبقا بعد طبق. ومرقبا بعد مرقب. حتى يتناهى عند الحد الذي لا يتجاوز القدر. وأن القرآن هو الذي تجاوز هذا الحد تجاوزا. واضحا عند أصحاب البصيرة بالكلام وأهل الصفة. حتى قطع أطماعهم. وقصر قواهم. وقدرهم. وقد رازوا ـ اختبروا ـ أنفسهم كما يقول الجاحظ فلم يجدوا إلى المعارضة سبيلا.

وقد دعاهم القرآن إلى معارضته واللغة لغتهم وهم الأصل فيها والقدوة فلم يجيبوا داعي المعارضة. ولم يكتف القرآن بالدعوة الهادئة الى المعارضة وإنما أهاجهم وقرعهم. وأحمى أنوفهم

ليستخرج منهم غاية ما عندهم من باب البيان وليظهر بذلك عجزهم ويثبته على وجه الدهر. لأنه سبحانه جعل عجز هذا الجيل الذي هو القدوة من اللسان حجة على عجز غيره من الأجيال والأمم الذين ليسوا من أصحاب العربية كأمم الفرس والترك واليونان وغيرهم، من أمم العجم، وقد شرح الامام الباقلاني هذا شرحا واضحا (ينظر كتاب اعجاز القرآن ص ١١٣ طبعة دار المعارف.

وهذا الباب من أبواب البلاغة القرآنية متسع جدا وفيه علم كثير لايزال بعضه مخبوءا في مجملات كلام العلماء يحتاج الى بحوث ذكية وصابرة لتحسن استخراجه والانتفاع به، وسوف ندعه بعد ذلك لنشير إلى باب آخر من أبواب البلاغة القرآنية أنبته علماء القرن الرابع وسقوه من رحيق فكرهم حتى نجم وأشرق والتمع، ثم أغفله الدارسون إلا ما كان من كلامهم رمزاً وإشارة تؤمىء اليه من قريب أو من بعيد، ثم هو لايزال مع هذا الاغفال في هذه الأزمنة التي تجاوزت عشرة قرون أقول لايزال غضا يرف ماؤه، ويغري العقل بهاؤه، ورواؤه، هذا الباب هو ما سماه الخطابي شيخ علماء السنة ــ البلاغة الخاصة بالقرآن. وهي مباينة مباينة تامة ــ بلاغة الناس، أو سائر البلاغات كما يقول رحمه الله، ولم أعرف كتابا كتب في اعجاز القرآن وليس فيه كلمة واحدة عن فن واحد من فنون البلاغة التي هي المعاني والبيان والبديع الا كتاب البيان في اعجاز القرآن الذي كتبه الخطابي، ولهذا قلت انه وضع اساس علم جديد في الدراسة البلاغية لم تتوفر، عليه أقلام العلماء بعد لتصْقُله وتثقفه وتنميه، وتزيده شرحا وتفصيلا كما هو الشأن في العلوم، وانما بقي فكره هذا، وعلمه هذا، لمعا تشرق في اشارات العلماء اليه.

وتقوم هذه البلاغة على بيان خلو القرآن خلوا تاما من البشرية. فليس وراء كلماته تلك الأحوال البشرية التي نراها وراء كل كلام يصدر عن الانسان، وهذا الكلام يحتاج الى مزيد من التأمل لأنه ليس كلاما رفيعا فحسب وانما هو فوق الرفيع والرائع، وهو كلام غريب على عقولنا رغم ان علماءنا ضمنوه كلامهم، من القرن الرابع كما قلت، وهو ليس مذكورا في كلامهم بهذا الوضوح الذي بينته ولكنني لم أتكلفه وسوف أدل على موضعه من كلامهم، ولكن بعد مزيد بيان له، وكان الخطابي يتفقد الشعر وكلام الناس، ويتدبره، ليتعرف على الشيء الذي يوجد فيه ولا يوجد منه شيء البتة في القرآن الكريم، فوجد كل كلام يصدر عن الانسان فيه لا محالة حال من أحوال هذا الانسان، ووصف من وصفه، ووسم من وسمه، وأن هذا ضربة لازب لا ينفك، فالانسان بأوصافه العامة التي يشترك فيها الجنس كله كائن في كل ما يصدر عنه من بيان، ثم يتفرد كل ذي بيان في بيانه بأوصافه هو وأحواله هو، وأهم ما تتميز به «بلاغات الناس» كما يسميها الخطابي هو هذا الملمح الانساني، او الوسم البشري، أوالأحوال والأوصاف التي هي من خصائص النفس البشرية، والمنعكسة في كلام الانسان لا محالة.

قلت ان الخطابي تفقد الشعر وكلام الناس فوجد الانسان او النفس الانسانية بأهوائها وأحوالها تسكن في كل كلام يصدر عنها.

ثم تفقد القرآن وتأمله وتدبره وبحث عن هذه النفس الانسانية التي يراها لا محالة في بيان الناس فلم يجد لها أثرا بل وجد في القرآن ماينافي وجودها منافاة ظاهرة، أعني وجد أحوالا وأوصافا ليست هي أحوال النفس الإنسانية وليست هي اوصافها بل يستحيل ان تكون احوال النفس الانسانية، وأوصافها لانها تناقض فطرة الانسان. وكان الفرق الظاهر عنده بين بلاغات الناس والبلاغة الخاصة بالقرآن هو هذه الفطرة، أعني فطرة الانسان التي لا ينتفي وجودها في القرآن انتفاء قاطعا فحسب، بل بني القرآن كله على ما يناقض هذه الفطرة. ويخالف جوهرها، وهذا برهان ساطع على ان هذا الكلام كلام الله والمراد بمناقضة الفطرة في الاصل الذي بني عليه

القرآن هو ان الصفات الموصوف بها بيان القرآن لا تتلاءم مع ما هو معروف من جوهر الفطرة بل يتناقض معها. فإذا كانت فطرة الانسان يداخلها الضعف والفتور، والاختلال ـ وهذا لازم ومصداق لقوله سبحانه ﴿**وخلق الانسان ضعيفا**﴾ واذا كان هذا الضعف والفتور يداخل بيانها ـ وذلك امر لازم ـ حتى ترى الشعر وغير الشعر يتراوح بين ما يعجبك ويروعك وما ليس كذلك، حتى لا ترى الكلمة الرائعة النبيلة التي وصفوها بانها كالشذرة الا في القليل النادر، فإن بناء القرآن كله على ضرب من الصحة والسداد والرفعة والاعتدال دليل قاطع على أن مصدره ليست هي فطرة الانسان.. ونريد أن نتجه الى الاقتراب من الخطابي لأن هذا الذي نقوله هو شرح يستلهم مقالة الرجال وليس مذكورا في كلامه بنصه ولفظه، وانما يقول الخطابي في تحديد «البلاغة التي اختص بها القرآن» وهذا لفظه ـ وهو صريح في الذي ذكرته أولا من انه يغرس علما جديدا اسمه البلاغة التي اختص بها القرآن، ومعنى اختص بها انه لا يوجد شيء منها في كلام البشر ـ يقول «والعلة فيه ـ يريد معنى الاعجاز ـ ان اجناس الكلام مختلفة.. فمنها البليغ الرصين الجزل، ومنها الفصيح القريب السهل، ومنها الجائز الطلق الرسل ـ وهو بهذا يذكر بلاغات الناس ـ ثم يشير الى علة هذا الاختلاف فيقول ـ العذوبة نتاج السهولة، والجزالة والمتانة في الكلام تعالجان نوعا من الوعورة ـ وهذا واضح في انه يصف مخارج هذه الاجناس من النفس الانسانية والعذوبة وصف للكلام وهي صفة تنتجها السهولة وهي حالة من أحوال النفس الانسانية ومعنى ان الجزالة والمتانة تعالجان نوعا من الوعورة أي تنتجان عن حال من أحوال الشدة في النفس التي يصدر عنها البيان أو تنتجه.

ولما كان الكلامان، صادرين عن حالين مختلفين كان من المستحيل ان يمتزج هذان الوصفان في الكلام وانما يتواردان عليه فنجد كلاما عذبا وبجانبه كلاما جزلا. وذلك لأن الأحوال الصادر عنها كل جنس من أجناس الكلام تتعاقب على النفس ولا تتلاقى، فالنفس قد تسهل ثم تشتد ولكنها لا تكون على الحالين معا في لحظة واحدة هي لحظة البيان. وهذا هو السر في أن هذه الأجناس تأتي منفردة في الكلام الصادر عن الانسان، والقرآن وحده هو الذي مازج بين هذه الأجناس في مزيج بياني متفرد لها. فامتزج له بامتزاج هذه الاوصاف نمط من الكلام يجمع صفتي الفخامة والعذوبة.. واجتماع الأمرين في نظمه مع نبو كل منهما عن الآخر فضيلة خص بها القرآن ـ هذا لفظ الخطابي وتأمل قوله مع نبو كل منهما عن الآخر لاختلاف ما يعالجانه على حد ما شرحنا، ثم تأمل قوله فضيلة خص بها القرآن ووضح بصورة أبين فقال يصف هذه الفضيلة بأنها «يسرها الله بلطيف قدرته من أمره ليكون آية لنبيه، ودلالة على صحة ما دعا إليه من أمر دينه». ـ البيان ص٢٣، ٢٤ ـ واللطيفة التي يسرها الله بقدرته لتكون معجزة النبي صلى الله عليه وسلم هي أن الأحوال الأسلوبية المتباينة في كلام الناس لتباين مصادرها من النفس الانسانية هي متمازجة في كلام الله لعدم صدوره عن النفس الانسانية وهذا واضح في كلام الخطابي وفيه الذي شرحناه وأوسع من الذي شرحناه. وخلاصته انك اذا تدبرت كلام امرىء القيس وجدت امرأ القيس، وإذا تدبرت كلام زهير وجدت فيه زهيرا. واذا تدبرت كلام الله وجدت الله، وهذا شيء من معنى قوله سبحانه ﴿**أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها**﴾ سورة محمد آية ٢٤ وصدق الله العظيم

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله ومن تبعهم باحسان■